

الآليات الحجاجية في مقامات بديع الزمان الهمذاني مقاربة تداولية

*The mechanisms of argumentation in Al-Hamadhani's Makamat.
"pragmatic approach"*

طالب دكتوراه/ فتيحة غزال

إشراف الأستاذ الدكتور/ محمد قراش

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة عمارثليجي - الأغواط (الجزائر)

مخبر اللغة العربية وآدابها

f.ghezal@lagh-univ.dz

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2022/01/19 تاريخ النشر: 2022/03/15

ملخص:

لقد تميزت المقامات بلغة إيحائية وأقوال حجاجية وأبعاد سياقية، وهذا ما جعلها تكون حقلا خصبا لممارسة الإجراءات والآليات التداولية. إذن كيف تسهم المقاربة التداولية في فك الشفرات المهمة في خطاب المقامات؟ وللإجابة على هذه الإشكالية وغيرها ارتأيت أن يكون موضوع المقال: الآليات الحجاجية في مقامات الهمذاني "مقاربة تداولية"، وهذا برصد تقنيات الحجاج في المقامات التي يزخر بها التراث العربي، باعتبارها الفن الأكثر ازدهارا في العصر العباسي، من خلال رصد مجمل الأساليب الحجاجية التي استخدمها الهمذاني، كالأليات البلاغية مثل الاستشهاد والمحسنات البديعية وغيرها، ورصد الآليات اللغوية من استفهام وأمر وتقنية التكرار وغيرها من الآليات اللغوية.

الكلمات المفتاحية: التداولية؛ الحجاج؛ البلاغة؛ المقامات؛ الخطاب؛ الهمذاني.

Abstract:

The maqamat was characterized by suggestive language, arguments and contextual dimensions, and this made it a fertile field for practicing deliberative procedures and mechanisms. So how does the deliberative approach contribute to deciphering the vague codes in the denominators

discourse? In order to answer this problem and others, I thought that the topic of the article: The Hajj mechanisms in the shrines of Hamadhani is a "deliberative approach", and this is by monitoring the techniques of pilgrims in the shrines in which the Arab heritage is rich, as they are the most prosperous art in the Abbasid era, by monitoring the entirety of the pilgrim methods used by Al-Hamzani , Such as rhetorical mechanisms such as martyrdom, badiologists, etc., and monitoring the linguistic mechanisms of interrogation, command, repetition technique, and other linguistic mechanisms.

key words: *Deliberative*; Pilgrims; Rhetoric; Maqamat; the speech; Hamdhani.

مقدمة:

تعد التداولية علما يقف على الجانب الاستعمالي للغة وهذا من خلال دراسة علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه وهذا ما يظهر في المعايير التي تبني عليها التداولية ، كنظرية أفعال الكلام ونظرية الملاءة وغيرها، ولقد تميزت المقامات بلغة إيحائية وأقوال حجاجية وأبعاد سياقية، وهذا ما جعلها تكون حقلا خصبا لممارسة الإجراءات والآليات التداولية . فكيف تسهم المقاربة التداولية في فك الشفرات المهمة في خطاب المقامات ؟ وللإجابة على هذه الاشكالية وغيرها ارتأيت أن يكون موضوع بحثي حول : الآليات الحجاجية في مقامات الهمذاني "مقاربة تداولية " ، وهذا برصد تقنيات الحجاج في المقامات التي يزخر بها التراث العربي، بإعتبارها الفن الأكثر ازدهارا في العصر العباسي، من خلال رصد مجمل الأساليب الحجاجية التي استخدمها الهمذاني ، كآليات البلاغية بإعتبارها حججا جاهزة غير صناعية مثل الاستشهاد والمحسنات البديعية وغيرها، ورصد الآليات اللغوية من استفهام وأمر وتقنية التكرار وغيرها من الآليات اللغوية .

الآليات اللغوية :

إنّ للتراكيب الإنشائية دور بالغ الأهمية في إقامة الحجة والبرهان إذ تركز عليه محاور عدة تشحن النص بكثير من الأحاسيس والمشاعر التي تشكل بؤرة دلالية تفتح باب التأويل من خلال ما يوحيه من وراء تلك المعاني الضمنية انطلاقا من الوظائف الحجاجية التي يعد فيها التركيب الإنشائي ركيزة أساسية.

الاستفهام: إنّ للاستفهام دورا مهما في شد محاور الحوار إذ لا تتطلب أسئلة المتكلم الإجابة المباشرة بل تتجاوز ذلك إلى تحرير آليات التشكيل البلاغي للإسهام في خلق صور وتشكيل دلالات جديدة مفتوحة على التصور والتأويل إذ قد يكون الاستفهام هو الحجة بعينها فهو بهذه الأهمية عُد من أنجع الأفعال اللغوية حججا.

ويمكن التمثيل لبعض سياقات الاستفهام في مقامات الهمذاني لنذكر طاقته الحجاجية التي يخدم بها صاحب الخطاب مقامته كما يلي:

سياق التفرع والإنكار: يقوم على مبدأ المحاسبة (محاسبة المخاطب على أفعاله)، والمحاسبة والإنكار من شأنهما أن يكونا قوة حجاجية تخدم قول حديث عيسى بن هشام من جهة والتهكم والإزدراء الذي يمارسه أبو الفتح الإسكندري ومن ذلك ما ورد في المقامة البلخية حينما كان أبو الفتح الإسكندري مخاطبا لعيسى بن هشام الذي لم يعرفه فعرفه بعض من حضر قائلا:

ح1: "ألست بأبي الفتح الإسكندري؟ ألم أراك بالعراق تطوف في الأسواق مُكديا بالأوراق؟" (1).
وهنا يظهر مصطلح الكدية " وهو الاستجداء بأساليب شتى وهي مهنة صعاليك العصر العباسي".

كما نجد استعمال الأداة " من " للافتخار والتباهي والتعالي في مقامته السجستانيّة مفتخرا بعلمه وبروحه التي جالت كل مكان قائلا:

ح2: "أنا باكورة اليمين وأحدوثه الزمن... من الذي ملك أسوارها وعرف أسرارها... من الذي ملك مفاتيحها وعرف مصالحتها" (2).

سياق التمني: ومن ذلك ما نجده في المقامة البخارية:

ح1: "فهل من كريم يجلو غياهب هذه البؤوس، ويقل شبا هذه النحوس"
ولعل سبب إيراد التمني في أسلوب الاستفهام هو ما يطمح إليه أبو الفتح الإسكندري من أن تصل كلماته قلوب مستمعيه حتى يستشعروا أنّ فعلا ما يبذلونه من عطايا هو دليل كرمهم إذ يمنهم بأن إكرامهم هو إخراج البؤساء من ظلمة الفقر والحاجة متمنيا هو الآخر أن تجود يدهم فيكرموه.

الأمر والنهي: أسلوبان إنشائيان يقع القول فيهما كأنجاز الأفعال معينة انجازا ضمنيا لأنهما يهدفان إلى توجيه المتلقي إلى سلوك معين، فقد يمثلان الدعوة الواضحة إلى إرشاد السلوك وتحويل الكثير من القيم إلى أفعال ومواقف ومن ذلك ما نجده في المقامة البخارية:

ح1: "فبادروا... وأحسنوا... وأذكروني... " (3).
في جملتها تمثل أفعالا انجازية بغرض الترغيب فهو يدعوهم إلى فعل الخير والإحسان مع الدهر ما أحسن بأسلوب إرشادي يخدم نتيجة ضمنية هي إلحاق المعنى بعيسى بن هشام حيث كان أبو الفتح الإسكندري في هذه المقامة يكره مخاطبته ويلوح له بالحديث "أذكروني أذكركم، وأعطوني أشكركم" فهو بغاية التكسب.

ح2 "فليشغل كل منكم بالجود يده، وليذكر غده..."

جاء الكلام بصيغة الأمر (فليشغل، ليذكر..) على هيئة الفعل المضارع المسبوق بلام الإفادة وهو قول يخدم النتيجة الضمنية وهي التكسب حيث يطلب بطريقة ضمنية أن تجود يدهم ويذكرهم بأن حديثه هذا ليس كأبي حديث ولن تجده عند أي إنسان قائلاً: " وَقَدْ سَمِعْتُمْ يَا قَوْمُ، مَا لَمْ تَسْمَعُوا قَبْلَ الْيَوْمِ، فَلْيُشْغِلْ كُلَّ مِنْكُمْ بِالْجُودِ يَدَهُ، وَلْيَذْكُرْ غَدَهُ ... ".
تقنية التكرار: تعدُّ كوجه حجاجي ذات صيغة مقامية تعددت وظائفها من خطاب لآخر فيعبر عنها ب: "الإفهام والإفصاح والكشف وتوكيد الكلام والتشبيه من أمره وتقرير المعنى وإثباته⁽⁴⁾ .

كما أن له دوراً مهماً في حضور المعنى في ذهن المتلقي، لأن تكرار الشيء مرة مرتين يؤدي إلى حضوره في الذهن وحضوره في الذهن يؤدي إلى ثبوته وثبوته يعني الاقتناع والقبول به ومن ثم الإذعان له، وقد كثُر وروده في المقامات بشكل لافت للانتباه لأنه اتخذ صوراً مختلفة، فمن تكرار الحروف إلى تكرار الجواهر إلى تكرار الكلمات والألفاظ إلى تكرار جمل بكاملها، وهذا ما يدل على أن بديع الزمان كان على علم بقدرته التكرار على الإقناع، ولهذا وظفه في بناء مقاماته وهذا ما يستدعي القول بأن: " التكرار يساعد أولاً على التبليغ والإفهام ويعين المتكلم ثانياً على ترسيخ الرأي والفكرة في الأذهان، فإذا ردد المحتج لفكرة حجة ما أدركت مراميها وبانت مقاصدها ورسخت في ذهن المتلقي، وإن ردد رابطاً حجاجياً أقام تناغماً بيناً بين أجزاء الخطاب وأكد الوحدة بين الأقسام أو أوهم المتلقي بها "، ومنه فالسؤال الذي يطرح نفسه: كيف ساهمت تقنية التكرار في تفجير البؤرة الدلالية وجعلها حجة وآلية للإقناع ؟

تقول المستشرقة " بربرا جنستون كوتش " في التكرار: " هو الإقناع من خلال الصياغة وإلباسها إيقاعات نغمية متكررة جميلة تهدف إلى استمالة السامع "، والتكرار يتجسد في مستويين: مستوى تكرار الشكل، ومستوى تكرار المضمون:
تكرار الشكل: ويتحقق عبر عدة أنواع⁽⁵⁾:

- تكرار الحرف: وهو يقتضي تكرار حروف بعينها في الكلام مما يعطي الألفاظ التي ترد فيها تلك الحروف أبعاداً تكشف عن حالة الكاتب النفسية إذ كما نعلم أن لكل حرف معناه. ويظهر ذلك في المقامة الصُفْرِيَّة⁽⁶⁾:

ح[1: (الراء): " رجل، نجار، الصُّفْرُ، الكفر، يرقص، الظفر، الغربية، جارية، صفراء، تسرّ الحاضرين، الناظرين، الرِّيط، إيراد، مراده، الكريم، رأي، أردت رأيك، نشر".
(الدا): " عندي، يدعو، أدبته، لديك، ولد، قد، بلدك، يدك، إيراد، مراده، المجد، يخدع، اليد، قد "

(الباء): أدبته، الغربية، الحسبة، خطب، تعجب، أجب، ينجب، سبقك، عجبت، أجبته، البقاع، بلدك، باليد .

(الجيم): "الحج، رجل، نجار، جارية، تعجب، أجب، ينجب، عجبت، أجبته، المجد".
اجتمعت هذه الفونيمات لتحدث إيقاعاً متميزاً في المقامة، ويمتاز حرف "الراء" أنه حرف مكرر على الأصوات الأخرى بحضوره في عشرين دالا وتكراره مناسب مع السياق المتعلق بالحديث عن الدنانير.

ح2: "رجل من نجار صفر، خطب منك جارية صفراء".

فصوت الراء يتناسب مع صوت الدنانير إذ تحدث رنيما وجرسا، أما الأصوات الأخرى

(الدا، والباء، والجيم) تتسم بالشدة والجهر والترقيق.

تكرار اللفظة وهو تكرار اللفظة الواردة في الكلام لاغتناء دلالة الألفاظ وإكسابها قوة تأثيرية بين الكلام ومعناه، ومن تكرار اللفظة "أريد" في مقامته الساسانية وهذا ما شكل جرسا موسيقيا وأكسب حديثه قوة تأثيرية تدعو إلى التأكيد على ما يريده الطالب أبو الفتح الإسكندري من عيسى بن هشام إذ يريد رغيفا ولحما وماء بارد وقميصا ومشطا... قائلا:

أُرِيدُ مِنْكَ رَغِيْمًا	يَعْلُو حُوَانًا نَظِيْمًا
أُرِيدُ مِلْحًا جَرِيْمًا	أُرِيدُ بَقْلًا قَطِيْمًا
أُرِيدُ لَحْمًا غَرِيْمًا	أُرِيدُ خَالًا ثَقِيْمًا
أُرِيدُ جَدِيًّا رَضِيْمًا	أُرِيدُ سَخْلًا خَرُوْفًا
أُرِيدُ مَاءً يَنْلِجُ	أُرِيدُ إِنَاءً طَرِيْفًا

فالتكرار اللفظي لهذه القطعة للفظ "أريد" زاد للمقطوعة رسوخا وثباتا في ذهن المتلقي مع زيادة الفهم وبذلك كان حصول الاقتناع والإذعان، فهو قد لعب دورا مهما أكسب حديث أبو الفتح الإسكندري من البلاغة وقوة التأثير ما يجعل سامعه يمدّ يده في جيبه ويعطيه ما يريد دون أن يدري فينجح بذلك في تكسبه.

تتميز المقامة البغدادية عن المقامات الأخرى بظاهرة التكرار فيها ويقوم التكرار على الألفاظ المشتقة في خطاب ابن هشام : ح1: " فَخَرَجْتُ أَنْتَهْرُ مَحَالَهُ حَتَّى أَحَلَّنِي الكَنْخُ ". ح2: "وَأَبْعَدَ النَّسِيَانِ، أَنْسَانِيكَ طُولُ الْعَهْدِ"، ح3: "... فَلَكَمَهُ لَكَمَةً " (7).

يحاول الهمذاني من خلال استدعاء هذه الكلمات لبعضها البعض، إخراجها من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل، تحقق من خلق التنوع في الحركات والصيغ على الرغم من أن الأصوات نفسها مكررة على النحو التالي:

"العهد /عهدي"، "البعد /بعدي"، "شاب /شاب".

ويتكرر التكرار مرة أخرى معبرا عن إيقاع خاص يخدم الجانب الدلالي أكثر من الجانب الصوتي وهذا من خلال تكرار أفعال مثل: ح5: "جَلَسَ وَجَلَسْتُ، لَايَسْنَ وَلَا يَسْتُ"، ح6: "قَعَدَ وَقَعَدْتُ، جَرَدَ وَجَرَدْتُ"

وفي المقامة الصُفْرِيَّة : نجد تكرار الألفاظ يساهم في تكثيف الإيقاع على مستوى النصب كامله، وقد تكررت الدوال بين خطابي ابن هشام والفتى على النحو التالي:

- جَارِيَّةٌ صَفْرَاءُ تُعْجَبُ ← فَعَجِبْتُ مِنْ إِيْرَادِهِ

- فَإِنْ أَجَبْتُ يَنْجِبُ ← وَأَجَبْتُهُ فِي مُرَادِهِ⁽⁸⁾.

كذلك نجد تكرار الألفاظ في المقامة البصرية، يقول الإسكندري:

ح1: "يُطَوِّفُ مَا يُطَوِّفُ نَمَّ يَأْوِي

إِلَى زُغْبٍ مُحَدَّدَةِ الْعُيُونِ"

ح2: "وَسَرَحَنَ الطَّرْفَ فِي حِيٍّ كَمَيْتٍ، وَبَيْتَ كَلَا بَيْتٍ".

ح3: "وَالْفَقْرُ فِي زَمَنِ اللَّيْلَامِ لِكُلِّ ذِي كَرَمٍ عَلَامَةٌ

رَغَبَ الْكِرَامُ إِلَى اللَّيْلَامِ وَتَلَكَ أَشْرَاطُ الْقِيَامَةِ

تكرار العبارة والجملة وهو تكرار يعكس الأهمية التي يوليها المتكلم المضمون تلك الجمل المكررة باعتبارها مفتاحا لفهم المضمون العام الذي يتوخاه المتكلم إضافة إلى ما تحققه من توازن هندسي وعاطفي، وهذا ما نجده في المقامة الوعظية للهمذاني.

ح4: "يَا قَوْمُ الْحَذَرَ الْحَذَرَ، وَالْبِدَارَ الْبِدَارَ".

وهذا بغرض التأكيد على أَنَّ الدنيا غدارة لا بد من الحذر من مكائدها، كذلك تكرار في

المقامة المارستانية: نجد

ح1: "أَنَا يَنْبُوْعُ الْعَجَائِبِ فِي اخْتِيَايِ ذُو مَرَاتِبِ

أَنَا فِي الْحَقِّ سَنَامٌ أَنَا فِي الْبَاطِلِ غَارِبٌ

أَنَا إِسْكَنْدَرُ دَارِي فِي بِلَادِ اللَّهِ سَارِبٌ⁽⁹⁾

حيث نجد تكرار (أنا) عظم مقاماته دلالة على حب الذات والافتخار بالنفس ويظهر

دائما على لسان أبو الفتح الاسكندري

- كما نجد التكرار الاشتقائي في المقامة القرديّة من ذلك:

ح1: "فَرَقَصْتُ رَقْصَ الْمُحَرِّجِ، وَسِرْتُ سَيْرَ الْأَعْرَجِ"⁽¹⁰⁾.

ويظهر تكرار الاشتقاق أيضا في المقامة البصرية، وما تضمنه من فونيمات أصلية تشكل جذر الكلمة وهذا في قوله: ح1: " لِكُلِّ ذِي كَرَمٍ عَلَامَةٌ / رَغَبَ الْكِرَامُ ". ح2: " أَخَذَتِ الْجَمَاعَةُ إِخْذِي"⁽¹¹⁾.

تكرار من حيث المضمون: فهو كثير إذ نجده في المقامة الوعظية في قوله عن الدنيا:

ح1: "... وَلَمْ تُدَاوِهِ مِنْ سَقْمِهِ، وَلَمْ تَشْفِهِ مِنْ أَلَمِهِ ". فتداوي وتشفي بمعنى واحد⁽¹²⁾.

ح2: "أَيُّهَا أَمْرُكَ الرَّحْمَانُ، أُمَّ عَلَى هَذَا ذَلِكَ الْقُرْآنُ"، فالقرآن هو كلام الرحمان.

وفي مقامته السَّاسَانِيَّة نجد قوله:

ح1: يَا حَبِّدَا أَنَا ضَيِّفَا لَكُمْ وَأَنْتَ مُضَيِّفَاتَا

فأن أكون لك ضيفا فبطبيعة الحال أنت مُضيفي

ح2: "... وَسُنْعِدُ وَنَسْتَعِدُّ، وَنَجْهَدُ وَنَجِدُّ"⁽¹³⁾.

فالإعداد والاستعداد بمعنى واحد والاجتهاد، والجدُّ بمعنى واحد وذلك بغاية تشديد

المعنى وإقناع المستقبل وهي الغاية من كل تأكيد فهو استزادة في قوة حججته للخطاب.

وما يمكن استنتاجه هو أن بديع الزمان أولى أهمية بالغة لتقنية التكرار، وهذا لأهميته

ودوره الفعّال في الإقناع والعملية الحجاجية، وقد جاءت مقاماته مملوءة بتكرارات تنوعت

ما بين تكرارات للحروف أو الألفاظ أو المعاني أو حتى بعض الجمل، مما زادت المقامات بها جمالا

وقوة ورسوخا في ذهن المتلقي على أن أغلب التكرارات التي جاءت بها مقاماته تكرارات لفظية لا

معنوية، وهذا لاهتمامه بالجانب الصوتي لأنه قريب إلى النفس على حساب المعنى الذي هو

قريب إلى العقل، والنفس أقرب إلى الاقتناع من العقل، ولذا لجأ الهمذاني إلى الجانب العاطفي

دون الجانب العقلي لمعرفته أن اقتناع القلب أشد رسوخا وثباتا من اقتناع العقل.

الآليات البلاغية : ونعني في هذا المستوى بالأساليب البلاغية التي استخدمها بديع

الزمان، والتي كان لها دور حجاجي فهي أكسبت نصوص المقامات طاقة حجاجية وندرة

إقناعية، فكيف يا ترى وظف بديع الزمان الأساليب البلاغية في نصوص المقامات؟ وما هي

الأساليب البلاغية الأكثر استعمالا في المقامات؟ وهل أدت تلك الأساليب البلاغية دورها في

إقناع المتلقي؟

لقد تنوعت الوسائل البلاغية الموجودة في مقامات الهمذاني وهذا بتنوع مواضيع

المقامات فمن تشبيهات إلى استعارات إلى كنايات إلى استخدام صور البديع بأنواعه من مطابقة

وسجع وجناس، فهذه الصور البلاغية توفر الجمال وتقرنه بالإقناع بحيث يستحيل الفصل

بينهما فالمعنى يكون مقنعا ولكنه يحتاج إلى جمال يحفظ له رونقه ويدعم فعله والمعنى يكون

جميلا فتزداد قدرته على الفعل المتلقي⁽¹⁴⁾، فالجمال البلاغي يؤثر على التدوق لدى المتلقي،

ويسحره بما في العبارة من رونق فيزيد قوة العبارة حجاجا وإقناعا من الناحية الحجاجية و الإقناعية.

التشبيه: يعد شكلا من أشكال الحجج المؤسسة لبنية الواقع، فما يوفره التشبيه من طاقة حجاجية قادرة على إثارة المتلقي طاقة كبيرة حيث يشغل فكر المتلقي بالبحث عن العلاقة التي تجمع بين صورة المشبه والمشبه به، وما تحدثه هذه العلاقة التصويرية من أثر في نفس المتلقي وتحمله على الإقناع والقبول بتلك التشبيهات، ومن الأمثلة على ذلك ما نجده في قول بديع الزمان بالمقامة السجستانية :

ح1: " أَنَا بَاكُورُهُ الْيَمَنِ وَأُحْدُوئُهُ الرَّمَنِ"⁽¹⁵⁾. تشبيه بليغ حيث شبه نفسه باكورة بالفاكهة واليمن تبشيرا بأن اليمانيين يأتون مسلمين يفتح بهم ما أغلق من بلاد غيرهم، والأحدوثة ما يتحدث به وأكثر ما يدور على السنة أهل الزمن أسماء الفاتحين وأعمالهم وكلهم آباء فتح .
ح2: "ثُمَّ يَعْطُكَ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَقْدَاحٍ ذَهَبِيَّةٍ مِنْ رَاحٍ عِنَبِيَّةٍ".

الحجة هنا بمعنى يسقيك قدحا بعد قدح النبيذ، ونسب الأقداح إلى الذهب لأنها تكون بلونه إذا وضع فيها نوع من نبيذ العنب، وهنا تشبيه بالذهب ليس للأقداح بل للخمر.
ح3: "وَمُطْرِبٌ مُجِيدٌ لَهُ مِنَ الْعَزَالِ عَيْنٌ وَجِيدٌ". هنا تشبيه بليغ إذ شبه المطرب بالغزال والأمثلة عن حجج التشبيه كثيرة، وهذا يدل على أن الهمذاني كان مدركا للطاقة الحجاجية والإقناعية التي يملكها التشبيه ولهذا استغله في بناء مقاماته واقتناع المتلقي بها، وذلك لما يوفره التشبيه من حضور الصور في نفسية وذهن المتلقي، وهذا ما يضمن الإقناع والاقناع لديه.

الاستعارة : أما إذا تكلمنا عن الاستعارة فالحديث بنا قد يطول والمقام لا يسمح بذلك، إذ أننا نجد أن الاستعارة تعد من أخطر الصور الحجاجية، لأنها من الصور البيانية الأكثر كثافة وطاقة إقناعية، كما أوردها الباحثون في المقام الأول في الحجاج، لأن المرسل يلجأ إليها لتحقيق أهدافه.

إن استخدام الاستعارة في الحجاج لها دور كبير في إقناع المتلقي واستمالاته لقبول الخطب والإذعان له.

وهذا نجد أن بديع الزمان كان قريبا من أرسطو ومن الاستعارات التي كان ينشدها ويلجأ إليها، فكان ينشد هذا النوع من الاستعارات البسيطة غير المتكلف فيها، والتي يستطيع المتلقي الاقتناع بها، وبهذا نجد الهمذاني يوظف الاستعارة إلى جانب التشبيه لتأكيد أفكاره وتأييد مواقفه، كما أنه أحسن التصوير في بعض المقامات باستخدامه للاستعارة فقد زاده قوة وطاقة حجاجية فكانت أقنع وأقوى حجاجا منها لو جاءت على صورتها الحقيقية، وكل ذلك

خدمة لهدفه الرئيسي فالهمذاني سخر كل الوسائل في خدمة ذلك الغرض، والأمثلة التي وردت في المقامات تترجم ما قلناه وتؤكد مقدرة بديع الزمان البلاغية والبيانية في التصوير والتعبير عن أغراضه ومقاصده في أبهى الصور وأبلغها ما نجده في قوله في المقامة القريضية:

ح1: " فَاسْتَطَهَّرْتُ عَلَى الْأَيَّامِ بِضِيَاعٍ أَجَلْتُ فِيهَا يَدَ الْعِمَارَةِ، وَأَمْوَالٍ وَقَفْتُهَا عَلَى التَّجَارَةِ " (16).

هنا حجة يشبه فيها العمارة بالإنسان وحذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية وهي استعارة جميلة.

ح2: " حَتَّى إِذَا مَالَ بِنَا الْكَلَامِ مَيْلُهُ، وَجَرَّ فِينَا ذَيْلُهُ "، في هذه الحجة البلاغية صورة بيانية فقد شبه الكلام بالإنسان الذي يستطيع أن يميل وينحدر وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه فهنا استعارة مكنية.

ح3: " أَمَا تَرَوْنِي أَتَعَنَّي طِمْرًا مُمْتَطِيًّا فِي الضُّرِّ أَمْرًا مُرًّا " (17).

طمرا بمعنى الكساء البالي من غير صوف، اتخذها غطاءً له، ونجد في الشطر الثاني من هذا البيت استعارة مكنية، إذ جعل الأمر المر العسير كالحصان الذي يُمتطى.

في هذه الأمثلة الثلاث نجد بديع الزمان يحتج بالحجة الأولى باستعارة، ليصل في الحجة الثانية إلى نهاية الوصف وبداية كلام جديد، ليصل إلى نتيجة وصف حاله وما يلحقه من فقر، فبديع الزمان لجأ الى القول الإستعاري بدل العادي، لأن القول الإستعاري أقوى حجاجيا من القول العادي، فلو عبر بالكلام العادي لما كان لهذا الكلام قوة حجاجية، وما وصل إلى إقناع المتلقي وبالتالي ما وصل إلى دعم نتيجته وطرحها.

ويمكن أن نمثل هذه الحجج بواسطة سلم حجاجي:

من وصف نفسه وما يلحقه من عناء وفقر.

إلى أن يميل به الكلام في الوصف.

استعان في وصف حاله على حوادث الأيام وأبعد منها ما هو طويل.

نلاحظ أن القول الإستعاري ورد في أعلى درجات السلم الحجاجي ليدعم النتيجة أكثر.

ونجد أيضا في المقامة القردية:

ح1: " إذ انتهيتُ إلى حلقةِ رجالٍ مُزْدَجِمِينَ يُلَوِي الطَّرْبُ أَعْنَاقَهُمْ، وَيَشُقُّ الضَّحْكَ أَشْدَاقَهُمْ، فَسَاقَنِي الْجِرْصُ إِلَى مَا سَاقَهُمْ " (18).

بالعبارة الأولى " إذا... يلوي الطرب أعناقهم"، يصفه حاله أنه وقف يسمع صوت رجل ولا يرى وجهه لشدة ما يسرع الناس للوقوف عليه أي لشدة الهجمة وفرط الزحمة، ثم يتبع هذه الحجة بصورة بيانية " استعارة مكنية " بقوله " يلوي الطرب أعناقهم"، وهي كناية أيضا عن شدة الضرب.

فهذه الاستعارات توضح مدى قدرة بديع الزمان على تطوير اللغة وجعلها تعبر عما يقصده في أبلغ الصور وأبسطها إفهاماً وتعبيراً عن مقاصده، فقد جمعت هذه الاستعارات بلاغة الفهم مع بلاغة الإقناع مع بلاغة المتعة، فالاستعارة الحجاجية في مقامات الهمذاني قد جمعت بين الأهداف الثلاث لكل تعبير وهي: (الإفهام - الإبلاغ - الإمتاع)، واستخدام بديع الزمان لها لم يكن بريئاً بل كان على علم ودراية لمدى قوتها في الخطاب.

الكناية: تعد الكناية من وسائل التفنن في القول، والإبداع في إثبات المعنى والاحتجاج له "والمراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيؤمن به إليه، ويجعله دليلاً عليه⁽¹⁹⁾.
لم يهتم بديع الزمان لأمر الكناية كثيراً، ربما السبب يعود لغموضها واقتباسها، فلم يوضفها كثيراً في مقاماته، وذلك راجع إلى أن الكناية كثيراً ما تعتمد على الإنزياح والتجاوز الدلالي، ومن الأمثلة التي وردت في المقامات ما نجده في قوله في المقامة البلخية:

ح1: "فَوَرَدْتُهَا وَأَنَا بَعْدُ شَبَابٍ وَبَالَ الْقَرَاغِ وَجَلِيَّةِ التَّرْوَةِ"⁽²⁰⁾.
ح2: " دَخَلَ عَلَيَّ شَابٌّ فِي زِيٍّ مَلَى الْعَيْنِ، وَلِحْيَةٍ تَشْوُكُ الْأَخْدَ عَيْنٍ، وَطَرَفٍ قَدْ شَرِبَ مَاءَ الرَّافِدَيْنِ "

ح3: " صَلُّبَتْ عُوْدًا، وَرُمَتْ جُوْدًا، وَفِقَّتْ فَرَعًا وَطُبَّتْ أَصْلًا "

نجد في الحجة الأولى: العذرة: الناصية وهي خصلة من الشعر في مقدمة الرأس فالعبارة هنا كناية عن عنفوان الشباب، وهي صورة جميلة ومعبرة لأنه كنى عن القوة والعنفوان بخصلة الشعر المعتدلية على جبين الشاب أو الحصان القوي.

ونجد في الحجة الثانية: بالعبارة الأولى " في زيٍّ ملَى العين " كناية عن الهيبة والحسن، وفي العبارة الثانية "تشوِّكُ الأُخدعين"، المقصود لحية طويلة غطت الرقبة، فكلمة تشوِّكُ شوهت الصورة الأولى لأنها دلت على عدم الإهتمام وبالجملة تكلف، أما العبارة الثالثة "طَرَفٍ شرب ماء الرافدين"، كناية عن تألق العينين بالصفاء، كأنهم سقيتا تلك المياه الصافية، فالصورة جميلة جداً كأن العينين تشربان من النهر وتأخذان صفاءه ورونقه.

ونجد في الحجة الثالثة: العبارة الأولى " صَلُّبَتْ عُوْدًا "، كناية عن القوة، والعبارة الثانية " وفقت فرعا " كناية عن الزيادة والتفوق على الغير، وفي الثالثة " طُبَّتْ أَصْلًا "، كناية عن الأصل الطيب الكريم.

وهنا نجد الهمذاني يأتي بالكنايات في أبسط صورها لكي يصل إلى غرضه وهو الإقناع وحمل المتلقي على الإذعان وقبول الكلام.

كذلك نجد في المقامة القرظية:

ح1: " جَرَّ الْجِبَالُ فِينَا دَيْلَهُ " (21). نجد كناية عن الإطالة فجعل للجدال ثوبا طويلا جر ذيله على الأرض.

ح2: " هُوَ مَاءُ الْأَشْعَارِ وَطِينَتِهَا، وَكَثْرُ الْقَوَافِي وَمَدِينَتُهَا ".

بالعبارة الأولى " ماء الأشعار وطينتها "، كناية عن إجادة طرفة للشعر، والعبارة الثانية تأكيد للمعنى السابق، وأن تكون القوافي كنوز أمر جميل ومقبول، وأن تكون هي "مدينتها" فهنا بالعبارة تكلفة.

ح3: " دُرٌّ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ " (22)، كناية عن المرونة والتأقلم مع أطوار الزمن، وهي كناية بها تكلف بقوله: " دركما تدور".

هنا نجد بديع الزمان يلجأ إلى هذه الآلية لكل يصل بسهولة إلى إفهام السامع وتقريبه من طروحاته المتسلسلة بغية إقناعه، ومن أجل أن يحرك آليات الفهم والتأويل لدى المتلقي، ففي الحجة الأولى جاءت صريحة وهي الإطالة بالكلام، في حين جاءت الحجة الثانية على شكل كناية عن قوة التعبير عند النابغة الذبياني، والحجة الثالثة كانت أقوى الحجج وهي كناية عن إجادة طرفة بن العبد للشعر، ويمكن أن نمثل هذه الحجج على شكل سلم حجاجي:

هو ماء الأشعار (كناية عن إجادة طرفة للشعر)

لايرمي إلا صائب (كناية عن قوة التعبير)

جر الجدال فينا (كلام صريح)

فسبب ترتيب هذه الحجج على هذا الشكل يعود لأن:

الحجة الأولى جاءت على شكل كلام صريح، والكلام الصريح والعادي يكون أضعف حجاجيا من الكلام المجازي، أما الحجة الثانية وهي كناية عن قوة التعبير عند النابغة الذبياني وهو " كلام مضمر "، بينما الحجة الثالثة وهي كناية عن إجادة طرفة للشعر، وهو " كلام مضمر "، وكل هذه الحجج التي لجأ إليها بديع الزمان من أجل أن وصف أطوار الزمن.

الشاهد: وهذا باعتبارها من الحجج القوية والحجج الجاهزة التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه وأغراضه الحجاجية. وقد اعتمد الهمذاني هذا النوع من الحجج باعتبارها حجج قائمة بذاتها وماتحملة من قوة حجاجية عالية يستطيع من خلالها إقناع المتلقي.

ولقد حفلت مقامات بديع الزمان بالشواهد، تنوعت ما بين آيات قرآنية وأقوال الصحابة والتابعين، وأقوال الحكماء والتابعين، وأمثال، وأبيات شعرية، البعض منها مقتبسة والبعض الآخر للهمذاني، وسوف نقوم بعرض بعض الشواهد وكيف لعبت دورها في العملية الحجاجية.

القرآن الكريم : تكمن حجة القرآن في ذاته، لأنه يستمد سلطته من كونه كلام الله المعصوم من أي خطأ، فهو عماد الدين وأفصح كلام أبلغه لفظاً وأسلوباً ومعنى، وبهذا كانت محاولة الاقتراب من أسلوب القرآن هدف كل من جعل من اللغة وسيلة للإقناع، وظلت الوسيلة الوحيدة في ذلك هي الاستشهاد به "وقد عد الاستشهاد بالدين من المواضع الخارجة، لأنه ليس من ذات الموضوع ولا مشتقا من خصائصه، ولكن جاء من شيء خارج عنه، وهو يفيد اليقين والجزم، وإن كان من شيء خارج عن الموضوع، لأن مسائل الدين في مكانة من اليقين لا تعدلها مكانة، فإذا استشهد به استشهاداً صادقاً حلت دعوى الخطيب في القلب فلا تنتزع منه، لأنها تصير جزءاً من أوامر الدين فتكسب منه تقديساً"⁽²³⁾، خاصة إن كان السياق جامعاً للمستشهد والمستشهد له، فالحجة تكون أقوى والإقناع يكون أثبت على النفس، فهي بمثابة إقناع نفسي أكثر منه لغوي، فالمخاطب لا يقتنع بكلام المتحدث كونه كلام المتحدث بقدر ما يتأثر بالحجة "القرآن" ومتى امتزج كلام المتحدث بكلام الله كان أكثر تأثيراً، وهذا هو حال أغلب مقامات الهمذاني، فالواضح من مقاماته أنه كان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فهو كما اهتم بموضوعات وقضايا أدبية واجتماعية، اهتم أيضاً بموضوعات وقضايا دينية وقد لوحظ في المقامة المارستانية على أنه كان مدافعاً عن مذهبه، وهذا ما أوقعه في جدال مع المعتزلة وكان يحتج لأقواله بحجج من القرآن على لسان أبي الفتح الاسكندري الذي ألبسه ثوب المجنون ليرد عليهم ردا فيه عصبية وسب للمعتزلة:

ح1: " إِنَّ الْخَيْرَةَ لِلَّهِ لَا لِعَبْدِهِ، وَالْأَمُورُ بِيَدِ اللَّهِ لَا بِيَدِهِ، وَأَنْتُمْ يَا مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَعْبِسُونَ جَبْرًا، وَتَمُوتُونَ صَبْرًا، وَتُسَاقُونَ إِلَى الْمَقْدُورِ قَهْرًا، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ "⁽²⁴⁾.

ثم يكمل المقامة بعدة حجج استشهادها من القرآن جعلها لعرض القضايا ومن بينها:

ح2: "وَتَقُولُونَ خَالِقُ الظُّلْمِ ظَالِمٌ أَفَلَا تَقُولُونَ خَالِقُ الْهَلِكِ هَالِكٌ "

يعرض لأدلتهم على قولهم بالاختيار بأن خالق الظلم ظالم وبما أن الله تعالى ليس ظالماً، إذن فالظلم من خلق العبد وإيجاده، ويرد عليهم بدليل عقلي يناسب دليلهم ويقول لهم: "أفلا تقولون: خالق الهلك هالك؟ أي خالق الموت ميت، وهذا لا يعقل فلا بد أن يكون خالق الموت حياً وهو الله تبارك وتعالى: "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا "⁽²⁵⁾، وبعد إنكارهم ناقشهم وأفحمهم بالأدلة ومن بينها: ح3: " إِذَا سَمِعْتُمْ مَنْ يُضِلُّ اللَّهَ فَلَا هَادِيَ لَهُ أَخَذْتُمْ "⁽²⁶⁾، مع أن القرآن الكريم يوضح أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ثم يقوي رأي أهل السنة الذين يقولون أن الإسراء والمعراج كلاهما كان في اليقظة، وكان بالروح والجسد معا ولهذا يقول:

ح4: "زُوِيْتُ لِي الْأَرْضُ فَأُرَيْتُ مَسَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا"

ح5: " وَإِذَا سَمِعْتُمْ عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَقْطِفَ ثِمَارَهَا، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ حَتَّى اتَّقَيْتُ حَرَّهَا بِيَدِي أَنْغَضْتُمْ رُؤُوسَكُمْ وَلَوَيْتُمْ أَعْنَاقَكُمْ "

دليل على أن المعتزلة ينكرون الوجود الفعلي للجنة والنار في الدنيا ويقولون أن وجودها معنوي على الرغم من الأدلة الكثيرة في القرآن والحديث على وجودها الفعلي في الدنيا، أما عن إنكارهم لعذاب القبر على الرغم من الآيات القرآنية التي تقر ذلك يقول: ح6: " وَإِنْ قِيلَ عَذَابُ الْقَبْرِ تَطْيِيرُكُمْ "

ح7: " وَإِنْ قِيلَ الصِّرَاطُ تَغَامَرُكُمْ "، لما كان من دعاوى المعتزلة أن الصراط هو الطريق المعنوي، ولم يكن جسراً منصوباً على شفير النار يجتازه المؤمنون، وتنزل عليهم أقدام المبتلون مع أنه قد ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف وورد وصف الصراط وكيفية العبور عليه واجتيازه.

ومن أجل دعواهم الباطلة ثار عليهم ووصفهم بأحط الصفات وأخبثها، لكن هناك من كان منهم للحديث كالصداً للحديث وكانوا أشد خبثاً ممن كانوا قبلهم ولذا قال لهم: ح8: " يَا أَعْدَاءَ الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ بِمَا تَطْيِرُونَ، أَبَاللهِ وَأَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ تَسْتَهْزِئُونَ " ثم ينتقل إلى ابن هشام وعنفه على أنه اتخذ له زوجة من المعتزلة بقوله:

ح9: " وَأَنْتَ يَا ابْنَ هِشَامٍ تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَتَكْفُرُ بِبَعْضٍ، سَمِعْتُ أَنَّكَ افْتَرَشْتَ مِنْهُمْ شَيْطَانَةً، أَلَمْ يَهْمَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَتَّخِذَ مِنْهُمْ بَطَانَةً، وَبِئْسَ مَا تَفْعَلُ بِتَلْعِقِكَ " (27).

كذلك في المقامة الأهوازية: نجد حججا على لسان الشيخ الذي جاء لعيسى بن هشام ورفقته الذين اجتمعوا في الأهواز وأرادوا أن يتعاطوا شرباً، فأخذ في موعظتهم وتذكيرهم بالموت والعمل للأخرة.

ح1: " لَتَرَوْهَا صُغْرًا وَلَتَرْكَبُهَا كَرْهًا وَقَسْرًا، مَا لَكُمْ تَطْيِرُونَ مِنْ مَطِيَّةٍ رَكِبَهَا أَسْلَافُكُمْ وَسَيَرَكُمُهَا أَخْلَافُكُمْ، وَسَيْطَاهُ أَبْنَاؤُكُمْ، أَمَا وَاللهِ لَتُحْمَلَنَّ عَلَى هَذِهِ الْعِيدَانِ إِلَى تِلْكَمُ الدِّيدَانِ، وَلَتُنْقَلَنَّ بِهَذِهِ الْجِيَادِ إِلَى تِلْكَمُ الْوَهَادِ وَيُحَكَّمُ تَطْيِرُونَ كَأَنَّكُمْ مُخَيَّرُونَ، وَتَكْرَهُونَ كَأَنَّكُمْ مُتْرَهُونَ، هَلْ تَنْفَعُ هَذِهِ الطَّيْرَةَ يَا فَجْرَةَ " (28).

ثم أخذ يعظهم ويذكرهم بالموت ويقول لهم :

ح2: " فَلْيَكُنِ الْمَوْتُ مِنْكُمْ عَلَى ذِكْرٍ لِنَلَّا تَأْتُوا بِنُكْرٍ، فَإِنَّكُمْ إِذَا اسْتَشَعَرْتُمُوهُ لَمْ تَجْمَعُوا وَمَتَى ذَكَّرْتُمُوهُ لَمْ تَمْرَحُوا وَإِنْ نَسِيتُمُوهُ فَهُوَ ذَاكِرُكُمْ، وَإِنْ نِمْتُمْ عَنْهُ فَهُوَ نَائِرُكُمْ، وَإِنْ كَرِهْتُمُوهُ فَهُوَ زَائِرُكُمْ "

الشعر: لقد زاحم الشعر النثر في مقامات الهمذاني، وما يلفت الانتباه أن بعض المقامات استحوذ عليها الشعر أكثر من النثر، ففي المقامة البشريّة نجد صفحة كاملة شعرا، كذلك المقامة العراقية، أما المقامة الوعظيّة نجد صفحتين متتاليتين، والمقامة الأكثر احتضانا للشعر هي المقامة البشريّة التي تتضمن 37 بيت شعري، وقد شغل الشعر مقامات الهمذاني حيزا كبيرا، ويعود سبب ذلك إلى إن للشعر قوة تأثيرية على القارئ.

وهذه بعض النماذج من الأشعار الواردة في مقامات الهمذاني وما جاء في المقامة الأُسديّة⁽²⁹⁾:

أَيَا حَضْرِي أُسْكُنْ وَلَا تَخْشَ خَيْفَةً	فَأَنْتَ بَيْتِ الْأُسُودِ بْنِ قِنَانٍ
أَعَزَّ ابْنِ مِنْ مَعِدِّ وَيَغْرُبُ	وَأَوْفَاهُمْ عَهْدًا يَكُلُّ مَكَانٍ
وَأَضْرِبُهُمُ بِالسَيْفِ مِنْ دُونِ جَارِهِ	وَأَطَعْتَهُمْ مِنْ دُونِهِ بِسَنَانٍ
كَأَنَّ الْمَنَايَا وَالْعَطَايَا بِكَفِّهِ	سَحَابَانِ مَقْرُونَانِ مُؤْتَلِفَانِ
وَأَبْيَضَ وَضَّاحَ الْجَبِينِ إِذَا انْتَهَى	تَلَاقَى إِلَى عَيْصِ أَغْرِيْمَانِي
فَدُونُكُهُ بَيْتَ الْجَوَارِ وَسِبْعَةٌ	يَحْلُونَهُ شَفَعَتْهُمْ بِئْمَانِ

فمن خلال هذه المقطوعة سنحاول تسليط الضوء على أهم المميزات التي تجعل الشعر حجة قوية، إنه يجمع كل وسائل الإقناع من بلاغة وإيقاع ورمز وتمثيل وحكمة، ومتى اجتمعت هذه الصفات في كلام كان للقصد وأقنع للخطاب.

والإقناع في الشعر يعتمد التأثير الأسلوبي باللجوء إلى الصور، بما فيها التشبيهات والاستعارات والمحسنات البديعية، فالصورة تقرب المعنى وترسخها في الأذهان " ما يجلب المستمع هو البناء اللغوي، وبهذا لا يربط الإقناع بالمنطق والاستدلال بل باستخدام اللغة"⁽³⁰⁾. وتنظم الحجج في هذه المقطوعة على التالي:

يبتدئ المقطوعة بكناية عن الوفاء الشديد وهذا بقوله " وأوفاهم عهدا بكل مكان " وأخرى عن الشجاعة الفائقة وهذا بقوله " وأضربهم بالسيف من دون جاره "، فكل هذا من أجل خلق أثر في قلب المستمع، ويضيف لذلك صورة في غاية التكلف والمبالغة ليزيد لنصه غرابة إذ يجعل للموت والعطاء سحابتين بكفه وهذا ما دل عنه البيت التالي:

كَأَنَّ الْمَنَايَا وَالْعَطَايَا بِكَفِّهِ

سَحَابَانِ مَقْرُونَانِ مُؤْتَلِفَانِ

وفي البيت الثاني:

وَأَبْيَضَ وَضَّاحَ الْجَبِينِ إِذَا انْتَهَى

تَلَاقَى إِلَى عَيْصِ أَغْرِيْمَانِي

كناية لأنه لا يذكر البياض في مدح الرجال إلا مراد منه نقاء العرض والنظافة من دنس اللؤم، مع استعمال لفظ غريب " بعيص "؛ الأصل الأغر المشهور وهي كلمة غريبة الوقع في معرض المدح وهذا ليزاد نصه أكثر إيقاعا ومبالاة من طرف المستمعين له.

إضافة إلى السجع الذي أضاف للنص بهجة وقوة تأثير وحجة قوية كقوله: " العطايا / المنايا "، " سحابان / مقرونان / مؤتلفات "، " فدونكه / يحلونه ".

وخلاصة القول أننا نجد في مقامات الهمذاني:

- الإكثار من الشعر بدرجة كبيرة إما مقتبسا وإما من إنشاء الهمذاني، فمعظم مقاماته احتوت شعرا خاصة في آخر النص.

- قد يلائم الهمذاني بين الشعر والنثر في المقامة الواحدة كما هو الحال في المقامة الوعظية، حيث أنشأ قصيدة طويلة وجزأها على مجموعات من الفقرات، يأتي بمفردات من النثر ثم يكملها بأبيات من الشعر.

- إكمال النثر بالشعر والشعر بالنثر كما هو في المقامة الأذربيجانية: ".... وَبَلَغْتُ أَدْرِيَجَانَ وَقَدْ حَفِيَتِ الرَّوَاحِلُ وَأَكَلَتْهَا الْمَرَاحِلُ، وَمَا بَلَغْتُمَا:

نَزَلْنَا عَلَى أَنَّ الْمُقَامَ ثَلَاثَةٌ فَطَابَتْ لَنَا حَتَّى أَقْمَنَا بِهَا شَهْرًا"⁽³¹⁾.

- الاقتباس من شعر الأقدمين وهذا كله يدل على قيمة الشعر وما يحتويه من قوة حجاجية للإقناع والتأثير في قلوب المستمعين ولهذا استعمله الهمذاني في الكثير من مقاماته لينال هدفه من عطاء وسخاء.

أما عن شعره المقتبس من شعراء العرب على سبيل المثال فنجد في المقامة العراقية: استشهاد " أبو الفتح الإسكندري " بأبيات متنوعة من شعراء العصر الجاهلي والإسلامي، وهذا للإجابة عن أسئلة الرجل " عيسى بن هشام " قائلا:

ج1: البيت الذي لا يمكن حله فكثير ومثاله قول الأعشى:

دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيِّدٌ فَلَا تَحْسِبْنَا بِتَنَقَادِهَا

ج2: وأما المدح الذي لم يُعرف أهله فكثير ومثاله قول الهذلي:

وَلَمْ أَذْرِمَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ سُلِّ عَنْ مَاجِدٍ مَخْضٍ

ج3: وأما البيت الذي سَمَّجَ وضعه، وحسُنَ قطعه، فقول أبي نواس:

فَبِنْتُنَا يَرَانَا اللَّهُ شَرَّ عَصَابَةٍ تَجَرَّرُ أَدْيَالَ الْفُسُوقِ وَلَا فَخْرُ

ونجد أيضا بعض مقتبسات من الشعر في المقامة الشعرية: استشهاد الفتى "أبو الفتح

الاسكندري" لأجوبة الأسئلة التي اختارها عيسى بن هشام وجماعته لمعرفة مدى براعة هذا الغلام.

ح1: البيت الذي سَمَّجَ وَضَعُهُ وحسن قطعه، هو بيت أبي نواس:

فَبِنْتُنَا يَرَانَا اللَّهُ شَرَّ عَصَابَةٍ تَجَرَّرُ أَدْيَالَ الْفُسُوقِ وَلَا فَخْرُ

ح2: البيت الذي حَلَّهُ عَقَدُ وَكَلَهُ نَقْدُ، هو قول الأعشى:

دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيِّدٌ فَلَا تَحْسِبْنَا بِتَنَقَّادِهَا

ح3: البيت الذي نصفه مد، ونصفه رد، هو قول البكري:

أَتَاكَ دِينَارٌ صِدْقٍ يَنْقُصُ سِتِّينَ فَلَسَا

مِنْ أَكْرَمِ النَّاسِ إِلَّا أَصْلًا وَقَرَعَا وَنَفْسًا

وهذه الأمثلة نجد أن بديع الزمان قد أجاب على لسان بطله " أبي الفتح الإسكندري " على أسئلة راوي مقاماته " عيسى بن هشام " وألغازه، سواء في المقامة العراقية أو الشعرية، أي أن السائل هو البديع والمجيب أيضا هو البديع، وذلك كله يدل على سعة علمه بضرور الشعر الجاهلي والإسلامي، ويدل أيضا على اهتمامه بالأدب وشتى فنونه كما أنه يدرك على أن المقامات كما تكون نثرا تكون شعرا، وكما تتضمن أغراضا وأبوابا من الحياة الاجتماعية العامة، تتضمن أدبا ونقدا.

كما أنّ هذه الاستشهادات قبل كل شيء تشهد لوضعها بالتفوق والذكاء في الأدب وشتى فنون الحياة، فهو يعرف كيف يبدأ موضوعه، وكيف ينتهي منه، وكيف يأتي بنثر يعقبه شعر، أو شعر يعقبه نثر، وكله في موضع واحد ومعنى واحد.

البديع: يستعمل المرسل أشكالا لغوية تصنف بأنها أشكال تنتمي إلى المستوى البديعي وأن دورها يقف عند الوظيفة الشكلية، وهذا غير صحيح لأن له دورا حجاجيا ليس لزخرفة الخطاب بل يهدف الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد، والبلاغة العربية مليئة بهذه الصور والإمكانات والشواهد التي تثبت أن الحجاج من وظائفها الرئيسية وليس وجودها على سبيل الصنعة في أصلها وإن كان لا يمنع المرسل من أن يبديع كيفما يشاء، وإذا أدركنا أن الآليات القياسية التي تتحكم في بناء الخطاب الطبيعي تقوم في عمليات التفرع والإثبات والإلحاق وأن هذه الآليات الاحتجاجية هدفها الإفهام تبينا أن أساليب البيان مثل المقابلة والجناس والطباق وغيرها ليس اصطناعا للتحسين والبديع وإنما هي أصلا أساليب للإبلاغ والتبليغ، خاصة إن كان السياق جامعا للمستشهد والمستشهد له، فالحجة تكون أقوى والإقناع يكون أثبت في النفس، فهي بمثابة إقناع نفسي أكثر منه لغوي، فالمخاطب لا يقتنع بكلام المتحدث كونه كلام المتحدث بقدر ما يتأثر بالحجة القرآنية ومتى امتزج كلام المتحدث بكلام الله كان أكثر تأثيرا، وهو حال أغلب مقامات الهمداني.

هناك نوعان من المحسنات، محسنات تزيينية زخرفية متعلقة بالأسلوب، وهناك محسنات حجاجية متعلقة بالإقناع⁽³²⁾.

ونجد " الهمذاني " استعمل المحسنات كآلية بلاغية حجاجية، أي من أجل محاولة التأثير في المخاطب واستمالاته وإقناعه، وسوف نقتصر على السجع والجناس لأنهما يقومان بدور مهم في العملية الحجاجية.

السجع : لقد أورد " الهمذاني " السجع لغاية حجاجية. يكثر السجع في المقامة البغدادية وبه يفتح الهمذاني مقاماته يقول اشتهت الأزاد وأنا ببغداد تعقها سجعات تنوع في كل النص ومنها⁽³³⁾:

ح1: " أقبلت / نزلت " ، ح2: " حمارة / إزاره " ، ح3: " زيد / عبيد " ، ح4: " الشيطان / النسيان " ، ح5: " العهد / البعد " ، ح6: " عهدي / بعدي " ، ح7: " دمنته / جبنته " ح8: " غداء / شواء " ، ح9: " أقرب / أطيب " ، ح10: " طمع / وقع " ح11: " الأطباق / الرقاق " ، ح12: " سحقا / دقا " .
ويكثر أيضا في المقامة البصرية ويشكل مع المظاهر الصوتية التماثل المحدث للإيقاع ومنه⁽³⁴⁾:

ح1: " فناء / وشاء / شاء " ، ح2: " المنتزهات / المتوجهات " ، ح3: " هاد / نجاد " ح4: " ميت / بيت / ليت " ، ح5: " الضلوع / الدموع / الجوع " ، ح6: " شكر / نشر " .

وما يمكن استنتاجه أن السمة الغالبة على أسلوب بديع الزمان هي السجع وهو أسلوب لا يخلو من طرفة وجمال، استخدمه الهمذاني لذاته في بعض الأحيان، كما أنه كان يسرف أحيانا في استعمال مفردات اللغة ليحقق السجع والمزاوجة، ويصر في بعض الأحيان أن يستعرض مهارته اللغوية ومعرفته لغريب اللغة وقدرته على توظيف هذه المهارة في صياغة ألوان المحسنات البديعية ذات الجرس القوي والإيقاع الصاخب، ولكن دون أن يفقد التواصل مع القارئ أو يترأخى في حرارة التعبير وصدق التجربة، على الرغم من ذلك إلا أن مقاماته لا تخلف من تكلف وتصنع.

الجناس : لا يختلف دوره عن السجع في العملية الحجاجية الإقناعية، إلا أن مجاله ضيق لأنه يختص بمجال الكلمة أو اللفظة بينما السجع يختص بالجملة أو الفاصلة ككل أو البيت ككل، وقد وصفه الهمذاني بشكل كبير وبصورة ملحوظة إلا أنه قليل بالمقامات مقارنة بالسجع ومن الأمثلة الدالة على ذلك م انجد في المقامة البغدادية:

للجناس ناقص مقارنة مع السجع بهذه المقامة بشكل كبير مثل⁽³⁵⁾:

ح1: " عَقْدُ / نَقْدُ " ، ح2: " صَيِّدُ / زَيْدُ " ، ح3: " البِدَارُ / الصِّدَارُ " . ح4: " عَرَقًا / مَرَقًا

إضافة إلى السجع المتمثل بالإيقاع الصوتي في وجود الترصيع الصرفي المسجوع كما في قوله في المقامة الموصلية:

ح1: " عرته بهتة وعلته سكتة "، ح2: " سمعتم صوته أمنتهم موته " ح3: " في الركوع هفو أو في السجود سهو أو في العقود لغو ".

وفي المقامة الموصلية جناس يقوم على الاشتقاق كما في قوله⁽³⁶⁾:

ح1: " تدع القال والقيـل "، ح2: " أقيموه على رجليه فأقيم " ح3: " حفرت حفرته "، ح4: " أنيموه على وجهه فأنيم ".

وفي المقامة البصرية نجدها كغيرها تقوم على التماثل والتجانس في الأصوات أو الفونيمات من هذه التجانسات التي أحدثت إيقاعاً مزلغاً لاسكندري قوله:

ح1: " يلحظني شزرا يوسع جزرا "، ح2: " جعجع بي الدهر عن ثمه ورمه "، ح3: " يعشهن أو يغشهن "، ح4: " كلام رائع أبرع وأبدع ".

يبدو أن استعمال الهمذاني لهذه اللغة المفحمة بالإيقاع لم تكن مجرد إضفاء دلالات تخدم سياق المقامة ذاتها، فالدوال تتضمن أما تقاربا أو تقابلا دلالين، زيادة على الاختلاف في جنس الصامت الذي اقتصر في الأمثلة على صوت واحد أحدث الاختلاف في الدلالة المعجمية فبين (ثمه / رمه) اختلاف (الثاء / الراء) وإلى جانب تجانسهما تمثلان تقابلا دلاليا وبين الأفعال "يعشهن / يغشهن" تجانس شبه تام حددته القيمة الخلافية بين (العين / الغين).

والملاحظ على استخدام بديع الزمان بالجناس في المقامات هو توظيف الجناس الناقص دون الجناس التام، وكأنه يستعمل ذلك ليحس المتلقي بنوع من الفرق في المعنى رغم تجانس الألفاظ، وبهذا يكون همه التركيز على المعنى مع جواز البحث عن التجانس.

الطباق: من الصور البديع التي نجدها في المقامات الطباق، الذي هو من الصور البديعية التي كان لها حضور مكثف في المقامات، لأن الهمذاني أولاه الكثير من الاهتمام ومن ذلك قوله في المقامة البصرية:

ح1: " جفجع بي الدهر عن (ثمه) و(رمه) "، ح2: " إذا (أنزلنا) ... وإن (رحلنا) " ح3: " الكرام / اللئام "، ح4: " يُعشهن / يُغشهن ".

وفي هذا المثال نجد هذه المقامة جاءت على شكل ثنائيات، أجلت عن وجود وضعيتين متعاكستين أو متغايرتين يعبر عنهما الإسكندري بكل حرقة وغيظ ومرارة، مما يجعلنا نساير ابن هشام ورفقائه في تعاطفهم معه، ولقد إختصر الإسكندري تعبيره عن ذروة المعاناة من خلال الطباقين في:

ح1: " وسرحن الطرف في (حي) ك (ميت) "، طباق الإيجاب. ح2: " بيت / لا بيت "، طباق السلب. وهذه الثنائيات جاءت على شكل المزاوجة بين الأضداد أو ما يسمى بالطباق فالهمذاني بهذه الثنائيات من الأضداد التي زادت من تأكيد وتقريب الفكرة وتوضيحها في ذهن المتلقي مما

يجعله يقتنع بفحوى الكلام، وكل هذا بفضل تقابل الصور في شكل طباقات ثنائية، وهذا ما نجده أيضا في المقامة الموصلية⁽³⁷⁾:

ح1: " (شَدَّ لَهُ) الْعَمَائِمَ (وَلَقَّ عَلَيْهِ) تَمَائِمَ " ح2: " قَوْمُوا بِنَا أَلَيْهِ ثُمَّ (حَدَرَ) التَّمَائِمَ عَنْ يَدَيْهِ (وَحَلَّ) الْعَمَائِمَ عَنْ جَسَدِهِ " ح3: " أَنْيْمُوهُ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَقِيمُوهُ عَلَى رَجْلَيْهِ فَأَقِيمَ " ح4: " هُوَ (مَيِّتٌ) كَيْفَ (أُحْيِيهِ) " ح5: " إِذَا رُفِعَتْ عَنْهُ يَدٌ وَقَعَتْ عَلَيْهِ أُخْرَى " .

فالثنائيات المتضادة هنا ساعدت على توضيح الفكرة وتقريب الصورة، فهذه الثنائيات جاءت أفعالا عبّرت عن الحرقلة السريعة التي فرضها أهل الميت على الإسكندري مما لم يملك معها الوقت للهرب، ويختمها بطباق يوضح فيه عن فشله.

وفي القسم الثاني من المقامة كان الأمر أخف وطأة مما سبق ذلك أنه اقتصر على ذبح بقرة والإتيان بجارية والصلاة ركعتين، فكان على القوم الامتثال الكلي دون تردد يستدعي إقبالا وإدبارا، وكان عليه التشديد على تفاصيل أداء الركعتين فكانت طباقات من قبيل: ح1: " الْقِيَامُ / الْقُعُودِ " ، ح2: " الرُّكُوعُ / السُّجُودِ " .

ح3: " (أَخَذْنَا) الْوَادِي (وَتَرَكْنَا) الْقَوْمَ " ، وهذا الطباق جاء في خاتمة المقامة، ليعبر عن تمكن الإسكندري من الفرار.

خاتمة:

أفضت بنا هذه الدراسة المتواضعة في محاولة الكشف عن الظواهر الحجاجية في مقامات الهمذاني إلى مجموعة من النتائج التي يمكن إجمالها فيما يلي:

- بهذا الأضداد تتيح للهمذاني أن يحصل على رضا المتلقي دون اللجوء إلى استخدام الحجج والبراهين، كما أنه يستدرجه بطريقة بديعية جميلة، وهذا يدل على أن الهمذاني كان يعلم أن الأمور تستبين وتتضح بالأضداد، فركز على هذه النقطة وأكثر منها في مقاماته لأنه كان يدرك مدى قدرة الطباق الحجاجية.
- تجلت الحجج بكثافة في مقامات الهمذاني واستغل الهمذاني التراث الثقافي العربي من قرآن وأمثال وحكم وشعر ... كحجج جاهزة غير صناعية، وكان الشعر من الشواهد الأكثر ورودا في المقامات.
- تكاد تنعدم الآليات اللغوية الحجاجية في مقامات الهمذاني على عكس الآليات البلاغية.
- اهتم الهمذاني بالصنعة اللفظية ولاسيما السجع والجناس ولم يصحبه إهمال للمعنى، فقد كان يرجح لكل مضمون وسياق ما يناسبه من أسلوب.

الهوامش:

- 1- بديع الزمان الهمذاني، مقامات البديع، شرح وتعليق عبده محمد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، لبنان، ط4. (د ت)، ص 20.
- 2- المصدر نفسه، ص 128
- 3- المصدر نفسه، ص 127-128.
- 4- علوي حافظ إسماعيل ، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1. 2010 ، ص 32.
- 5- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2011، ص 70.
- 6- مارون عبود، مقامات الهمذاني، سلسلة نوايغ الفكر العربي، دار المعارف، مصر، ط3، 1981، ص 351.
- 7- المرجع نفسه، ص 91.
- 8- المرجع نفسه، ص 352.
- 9- المرجع نفسه، ص 165.
- 10- بديع الزمان الهمذاني، مقامات البديع، ص 147.
- 11- المصدر نفسه، ص 98.
- 12- المصدر نفسه، ص 201.
- 13- المصدر نفسه، ص 143.
- 14- سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري ، ص 122.
- 15- بديع الزمان الهمذاني، مقامات البديع، ص 24.
- 16- عبود مارون: مقامات الهمذاني، ص 05.
- 17- المرجع نفسه، ص 06.
- 18- المرجع نفسه، ص 146.
- 19- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، تحقيق: محمد ألتني، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط1. 2005، ص 51.
- 20- عبود مارون، مقامات الهمذاني، ص 147.
- 21- بديع الزمان الهمذاني ، المقامات، ص 19.
- 22- عبود مارون، مقامات الهمذاني، ص 07.
- 23- محمد التومي، الجدل في القرآن الكريم، فعالية في بناء العقلية الإسلامية، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ت)، ص 33.
- 24- عبود مارون، مقامات الهمذاني، ص 185.
- 25- سورة الملك، الآية 02.
- 26- عبود مارون، مقامات الهمذاني، ص 186.
- 27- المرجع نفسه، ص 186.

- 28 - عبود مارون، مقامات الهمذاني، ص 210 – 86
- 29 - مرجع نفسه، ص 210.
- 30 - كملية واتيكي، كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي بين سلطة الخطاب وقصدية الكتابة، (مقاربة تداولية)، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص 305.
- 31 - بديع الزمان الهمذاني، مقامات البديع، ص 65.
- 32 - صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للنشر، دمشق – سوريا، ط1، 2008، ص 51.
- 33 - بديع الزمان الهمذاني، مقامات البديع، ص 91.
- 34 - المرجع نفسه، ص 97.
- 35 - بديع الزمان الهمذاني، مقامات البديع، ص 91-92.
- 36 - بديع الزمان الهمذاني، مقامات البديع، ص 151.
- 37 - عبود مارون، مقامات الهمذاني، ص 153.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- بديع الزمان الهمذاني، مقامات البديع، شرح وتعليق عبده محمد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط4، (د ت).
- 2- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2011.
- 3- صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص - صفحات للنشر، دمشق - سوريا، ط1، 2008.
- 4- علوي حافظ اسماعيل، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010.
- 5- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمد ألتني، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط1، 2005.

- 6- كملية واتيكي، كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي بين سلطة الخطاب وقصدية الكتابة، (مقاربة تداولية)، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط1، 2004.
- 7- مارون عبود، مقامات الهمذاني، سلسلة نوابع الفكر العربي، دار المعارف، مصر، ط3، 1981.
- 8- محمد التومي، الجدل في القرآن الكريم، فعالية في بناء العقلية الإسلامية، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ت).